الناقد المبدع

أ. منصور عبد الوهاب[1]

إذا كان النقد فعلا تابعا للإبداع و سائرا في فلكه، يسمو حين يجنح المبدع إلى اختراق آفاق بكرة، ويتراجع دوره كلما ضاقت مساحته و قلت إمكاناته الفنية فإنه في مقام آخر قد ينبثق مع الشعر في لحظة واحدة عندما يجمع المبدع بين الابتكار الفني و الأداة النقدية.

و الواقع أن الشاعر –بغض النظر عن قوة ملكته– هو في الأصل ناقد لذاته على اعتبار أن نصوصه يخضعها للتمحيص و التدقيق و إعادة النظر قبل أن يودعها بين الناس و هو بذلك يمارس عملا نقديا –و إن لم يسمه كذلك– يستحضر من خلاله القارئ، فيعيد صياغة مقاطع و يعيد ترتيبها، بشكل تنال رضى المستقبل. وقد أورد النقد العربي القديم وجها بارزا من النقد الذاتي الذي كان زهير بن أبي سلمى يلزم نفسه به. فهو لا يصدر في شعره عن عفوية و ارتجال و إنّما عن روية و تفحيص، و لا يهمه إن دام فعله حولا كاملا 1.

و لعل ذلك ما حدا ببعض الشعراء و النقاد إلى اعتبار "الشعر صناعة" لا يقوى على وروده إلا من كان قادرا على البناء و إحسان الترميم إذ:

فالشعر صعبٌ و طويل سلّمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلّت به إلى الحضيض قدمُه و الشعر لا يستطيعه من يظلمه 2

قد يتجاوز الشاعر نقد نصوصه إلى نقد إبداعات الآخرين، فيتخلى عن وظيفته الأولى ليصبح موجها و مثمنا، وبذلك يجمع بين حرفة إبداع النصوص، و بين امتلاك حاسة فنية ينفذ من خلالها إلى أجناس الأدب على تنوع مشاربها. و تلك عملية معقدة لا تتأتى لكل الشعراء، فهم عادة ما ينفرون من القوالب الجامدة ومن استحضار صور يكون فيها العقل سيّدا، و يحبذون الإشارات العابرة و الآراء المتبثقة من ذواتهم، فيستحسنون ما يساير رؤاهم و توجهاتهم الفنية، و يستقبحون ما يتعارض معها. و إن دلّت بعض التجارب على قدرة متميزة لدى الشعراء حين يتحولون إلى نقاد، فهم الأقرب إلى الأجواء العامة التي ترافق العملية الإبداعية، وعلى معرفة واسعة بالطقوس الخاصة التي تصاحبها، فيما لا يعلم غير الشعراء تلك الأجواء التي يمكن أن تكون سندا مهما في مقاربة النصوص، بل إنّ بعضهم يعتبر النقاد المتميزين مبدعين متميزين أيضا، و إن كان ذلك لا يشكل قاعدة عامة يمكن إصدارها في حق الشعراء كلّهم..

إن المزاوجة بين الإبداع و النقد ظاهرة صاحبت مسيرة الأدب عبر تاريخه الطويل، فقد أحس الشعراء منذ وقت مبكر أن باستطاعتهم أن يولجوا عالم النقد وأن يلزموا أنفسهم بقواعد و آليات يقاربون بها نصوص عصرهم أو نصوص سابقة على زمنهم. و بخاصة في ظروف لم يكن فيها للاختصاص نفوذ و لا اعتبار. فقد جمع الأدباء بين تخصصات شتى لا يُعرف في أي جانب منها هم الأكثر تميزا و قدرة.

---

[1] -أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية و آدابها – كلية الآداب و العلوم الإنسانية – جامعة سيدي بلعباس – الجزائر

كان النابغة الذبياني في الجاهلية تضرب له خيمة من أدم في سوق عكاظ فيتوافد إليه الشعراء من كل أمصار شبه الجزيرة العربية يعرضون عليه سلعتهم الفنية 3. فيستحسن هذا و يستهجن ذاك. و لا يقوى أحد على ردّ نظراته. فقد شاع عنه أنّه صاحب بصيرة نافذة و رأي صائب لا يقل شأنا عن براعته الفنية في مجال الشعر التي تشهد له معلقته بباعه الطويل فيه.

لا جدال أن ذلك النقد كان مصدره الانطباع الآني و وقع الإلقاء في الأذن و لكن الاحتكام إليه دون غيره، و الإذعان لآرائه دون جدال حاد يشكل من وجهة خاصة قدرة النابغة الذبياني على أن يجمع بين ملكتين يبدو لقاؤهما –لغير المتمعن– ضربا من التعارض و التنافر.

لم يستثن الشعراء النقاد من الإسهام في حركية النقد العربي في العصر العباسي، إذ لم يعد نقدهم مرتبطا بأهواء عابرة تنتابهم عند قراءة قصيدة أو سماعها. و إنّما كان يصدر عن معرفة بالآليات الجديدة التي أصبحت تحكم العمل النقدي تبعا للتحولات الثقافية التي عمّت العصر. بل إنّ من الشعراء النقاد من أثارت آراؤه جدلا واسعا بين النقاد أنفسهم حين استفز معارفهم و استبدل معاييرهم، و لم تثنه فرادته الشعرية من التميز النقدي.

كان ابن المعتز أنموذجا للشعراء الذين جمعوا مع إبداعهم حاسة النّقد فقد كان من أوائل المهتمين بالبديع في شعر المحدثين و في شعر أبي تمام بخاصة. ويسجل له تاريخ النقد العربي بأنه أول من ((انحاز بالبديع العربي إلى الزخرف المادي، وجعله لا يهتم اهتماما واسعا بالزخرف العقلي أو المعنوي))4، و بذلك خرج عن عادة النقد و ألف لنفسه مدرسة بديعية سيكون لها خطر في الكتابات الأدبية اللاحقة عليه، حين جعلت كتابه البديع وجهتها المفضلة.

استمرت ظاهرة المزاوجة بين الإبداع الشعري و الممارسة النقدية في العصر الحديث على الرغم من طابع التخصص الذي لزم العصر فلم تشذ ثقافة دون أخرى في الجمع بين مجالين فنيين. إذ الظاهرة نفسها ملفتة للانتباه في الآداب الغربية، و ذلك حين تحول الشعراء من إسهاماتهم الفنية إلى المشاركة في تحديد معالم النقد الجديد.

يشكل ت – إ س – اليوت ظاهرة فريدة في الجمع بين النقد و الشعر إذ لم يكتف بمقاربة نصوص غيره، بل تعداها إلى نقد قصائده ذاتها و ذاك تحول جذري في طبيعة العلاقة بين المبدع و إبداعه، إذ إن انتقال النصوص إلى القراء يفقدها الطابع الشخصي الامتلاكي، و يحيلها إلى نص لا علاقة له بصاحبه، فيغدو قابلا للنقد من مبدعه، و ذاك تأكيد من وجهة أخرى إلى أن قصيدة الشاعر المثلى هي التي لم تكتب بعد.

إن الإسهام في بعث الحركة الأدبية أو تجديدها لا يقتصر على نوع النقد المصاحب للنصوص الإبداعية فحسب، بل قد يشكل نصا منفردا تغييرا لمسار تلك الحركة، حين يكتب بطريقة مختلفة لا تجاري سنن المبدعين. وقد استطاعت قصيدة ت. اس. اليوت "الأرض اليباب" أن تشكل منعرجا حاسما في مسيرة الشعر العربي الحديث، و أن توجه الأنظار إلى أشكال جديدة في الكتابة الشعرية.

إن الحديث عن ظاهرة الجمع بين النّقد و الإبداع الشعري، لا يتبقى الإقرار من خلاله بوجود تنافر بين الوجهتين، يلتقيان حينا في ذات واحدة، ثم يفترقان حين تعود قدرة الجمع عند فرد بعينه. فالتآلف هو الأصل في تلك العلاقة لا التعارض. و من ثم يمكن أن يقيم النقد جسورا جديدة مع الإبداع حين يتحول الناقد في وقفاته إلى

مبدع متأمل لا يكترث بالقوالب و القواعد فيسمو بنقده عن لغة المباشرة و التقرير ليجعلها راقية لا تقل شأنا عن النصوص الإبداعية ذاتها.

يصدر رولان بارت في قراءاته النقدية عن حس فني مرهف، لا يقيم اعتبارا للغة العلمية التي تطبع لغة النقد عادة، فلا تصبح طبيعة المواقف النقدية التي يصدرها هي التي تشد القارئ و إنّما يستهويه فيها لغته الخاصة التي تقربه من الإبداع أكثر من التزامها بالمسار النقدي. يظهر ذلك جليا في كتبه 'fragment d'un discours amoureux . degre zero de l ecriture . le plaisir du texte " بل إن عناوينها محيلة على الإبداع أكثر من النّقد.

استعاد شعراء العصر الحديث الدور نفسه الذي أسس منطلقاته الأولى النابغة الذبياني، فحولوا وجهتهم إلى النقد دون أن يكون ذلك إعلانا عن صرف نظرهم عن الشعر، إذ بقي ضمن انشغالاتهم الكبرى. فأحدثوا بذلك وشائج متينة بين الإبداع الشعري و الممارسة النقدية، سيرا وفق ما اصطلح عليه بتداخل الأجناس على مستوى الذات الواحدة على الأقل.

أحس شعراء العربية في العصر الحديث بضرورة حمل دور مزدوج في بعث حركة الأدب، و بخاصة حين أدركوا أن حداثتهم الشعرية لم تواجه بحداثة نقدية قادرة على استحداث آليات جديدة يكون النص باعثها ونكون بعيدة عن الأفكار التقليدية الجاهزة التي لا تأبه بخصوصيات النّص الحداثي.

كان أدونيس*5 من الشعراء النقاد الذين أسهموا في تأسيس نقد جديد ينفر من القوالب الجامدة والأيديولوجيات العقيمة و يجعل النّص ناطقا بمكنوناته وأبعاده. من خلال استحداث قراءة جديدة للمتن الشعري القديم تقربه من العصر و تبعده من أحكام السذاجة و البداوة التي ألصقت به، فغدا النّص الجاهلي -مثلا- قريبا من اهتمامات المحدثين، إذ تشكيله الفني غير مبني على الارتجالية و العفوية بل على مراس و دراية بالكتابة الشعرية و أسسها. و قد سار على دربه مجموعة من الشعراء*6 اتخذوا من النقد وسيلة لإظهار طبيعة علاقاتهم بالشعر، و الإسهام في تأسيس مشروع عربي جديد للشعر لا يتبرأ من التراث، و يقيم جسورا مع الحداثة.

تبدو الظاهرة أكثر بروزا في الأدب الجزائري، إذ يعدم وجود شاعر دون أن يكون له إسهامات نقدية في الغالب. مما يستدعي البحث عن سر تلك المزاوجة بين المهمتين.

كان مجال الأدب في الجزائر مفتقرا إلى أعداد كثيرة من الشعراء و النقاد، لأسباب يستفيض البحث في تجليتها ، وهي تتلخص عادة في التضييق الاستعماري و انحسار دائرة التعليم. و من ثم أحس شعراء الجزائر - على قلتهم زمن الاستعمار و بداية الاستقلال- بضرورة استحداث حركة نقدية تواكب موجة الشعر و تحدد معالمه و قنياته. و لم يجدوا بدا من امتهان النقد بعد أن طرقوا أبواب الشعر. فتولدت تبعا لذلك ممارسات نقدية مسجلة مؤرخة مرة و مقومة موجهة مرات أخر..

جسّد رمضان حمود مع النصف الأول للقرن العشرين ظاهرة الجمع بين الشعر والنقد في وقفات تعد الأولى في النقد الجزائري من حيث العمق و بعد النظر والقدرة على النفاذ بنقده إلى أمراء الشعر العربي ليظهر عدم أحقيتهم للقب الإمارة و لا إلى مسايرة العصر7. و قد كان بإمكان رمضان حمود الشاعر أن يؤسس مشروعا نقديا جزائريا لا يسير في فلك نقد المشارقة غير أن الموت لم يمهله ذلك.

و بذلك يكون رمضان حمود قد فتح للشعراء الجزائريين*8 بابا جديدا ينفذون إليه و يكلفهم بمهمة جديدة يضطلعون من خلالها بقراءة نصوص غيرهم.

إن الجمع بين الإبداع و النقد ظاهرة تكاد تكون عامة في آداب الأمم، لا تمنع ذاتية الشاعر و لا جنوحه العاطفي من مقاربة النصوص بشكل يقربه من الموضوعية و الصرامة المنهجية. و لا تعوزه في ذلك الأدوات على الرغم من بعض الصيحات التي تحاول التقليل من شأن نقد الشعراء. غير أنهم أثبتوا في عدد غير قليل من قراداتهم على وعي نقدي لا يختلف عن دقة من جعلوا النقد اهتمامهم الأول.. بل إنهم الأقدر على تمثل الطقوس الشعرية و الوقوف على دلالاتها..

الإحالات:

1 - ينظر الجاحظ: البيان و التبيين: دار الفكر - تح: عبد السلام محمد هارون - ط4 - 09/2.

2 - الحطيئة: الديوان - شرح يوسف عيد - دار الجيل - لبنان - ط1992/1 - ص:203.

3 - ينظر بن قتيبة: الشعر و الشعراء - دار الثقافة - لبنان - 101/1.

4 - شوقي ضيف: الفن و مذاهبه في الشعر العربي - دار المعارف - ط10 (د ت) ص266.

5 - " يمكن حصر بعض كتاباته النقدية في مشروعه النقدي "الثابت و المتحول بأجزائه الثلاثة زمن الشعر، مقدمة للشعر العربي، كلام البدايات ... "

6 -* يذكر على سبيل التمثيل لا الحصر "محمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته و ابدالاته، الشعر المغربي المعاصر "

7 - عبد العزيز المقالح: القصيدة العربية مشروع تساؤل - و أصوات من الزمن الجديد. و صلاح عبد الصبور: قراءة جديدة لشعرنا القديم - و نبض الفكر قراءات في الفن و الأدب. و ينظر رمضان حمود: بذور الحياة - ص115 و ما بعدها.

8 -* يذكر على سبيل التمثيل أبو القاسم سعد الله، محمد ناصر، حمزة بوكوشة، أبو اليقظان، أزراج عمر... و من الذين زاوجوا بين الابداع الروائي و النقد، عبد الملك مرتاض، محمد مرتاض، واسيني لعرج...